٤٣ ابن الصباغ القوصى
شيخ التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى

شيخ التصوف المصرى فى القرن السابع الهجرى أبو الحسن بن الصباغ القوصى.. من اسمه نستدل على بعض جوانب شخصيته فى المجالين العلمى والاجتماعى.

ففى المجال العلمى نجد أنه ينتسب إلى مدينة قوص بصعيد مصر وهى ـ كما يقرر المؤرخون والجغرافيون، وفى مقدمتهم الشريف الإدريسى ـ أنها كانت عاصمة فعليه للصعيد منذ عصر الدولة الفاطمية إلى أواخر حكم المماليك لمصر. وقد كانت لهذه المدينة مكانة عظيمة على امتداد هذين العصرين ـ الفاطمى والمملوكى ـ فى نواحٍ كثيرة، منها الدينية، والثقافية، والاقتصادية، والاجتماعية، إلى درجة أنها كانت تقف على قدم المساواة مع حواضر الدولة الإسلامية وعواصمها، مثل القاهرة، ودمشق، والإسكندرية، وحلب، وغيرها.

وكما يذكر الباحث محمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر فى العصر الإسلامى»: أن الرَّحَّالة والجغرافيين العرب قد صوروا عظمة مدينة قوص فأفاضوا فى وصف جوامعها، ومدارسها المختلفة التى كانت إبان تلك الفترة مناراً للثقافة، ومشعلا للعلم، وملتقى للمعارف التى يقصدها الباحثون والدارسون وطلاب العلم من كل صوب وحدب.

ومثل هذا التقدم الذى حققته هذه المدينة فى ميدان العلم، حققت تقدماً فى ميدان الاقتصاد، فحفلت بالأسواق العديدة، والمتاجر الكبيرة، وامتهن أهلها الحِرَفَ والصناعات، كالنسيج، والحياكة، والصباغة.

وطبيعى أن يكون نتيجة هذا التقدم والازدهار الذى عاشته هذه المدينة أن تكون ملتقى للعديد من العلماء والفقهاء ورجال الصوفية، ووجهة نظر لأهل التجارة والصناعات الخفيفة من مختلف البلاد.

وطبيعى أيضاً أن يتأثر أهلها بهذا التقدم العلمى والاقتصادى الذى يترك أثره ـ ولا شك ـ على الناحية الاجتماعية. ويكون من بين هؤلاء. شيخنا أبوالحسن بن الصباغ القوصى. فنراه يستفيد من هذا المناخ العلمى ـ سواء من أهله فى المدينة نفسها، أو من الوافدين عليها من الحواضر الإسلامية المختلفة ـ استفادة مباشرة، أو غير مباشرة.

وأما عن بقية اسمه «الصباغ» فنسبة إلى صباغة المنسوجات التى اشتهر بها والده بين بلدان الصعيد. . ومن العجيب أن أبا الحسن ـ وهو الابن الأكبر، الذى كان يفترض أن يرث هذه الصنعة عن والده ـ كان لا يقبل عليها، وإذا كان يُصاحب والده فى الذهاب إلى المصبغة فإنما ذلك إمتثالاً لطاعة والده، أما عنه فقد كان لا يحب أن يستمر فيها. فكان يتحين الفرص للهروب منها إلى حلقات الوعظ والدرس التى كان يقيمها رجال التصوف وعلماء الدين بمدينة «قوص». ولعل والده قد لاحظ ذلك كثيراً، فكان يحزن لانصراف ابنه عن هذه الصنعة التى يود أن يورثها له. إلى أن كانت هذه الحادثة التى يرويها محمد عبده الحجاجى فى كتابه «شخصيات صوفية فى صعيد مصر» فيذكر: «أنه بينما كان جميع العاملين فى حانوت الصباغة غارقين فى عملهم إذْ بأبى الحسن يأخذ جميع المنسوجات والملابس المطلوب صباغتها، ويطرحها فى وعاء واحد مُعَدٍّ لِلَوْن واحد من الصباغة، ويلمحه والده، فيصيح فيه ناهراً إياه وقائلا: لقد أتلفت ثياب الناس! قاصداً هذه الثياب المراد صباغتها، فيُخرج المنسوجات والأثواب من الوعاء ليظهر أن كل ثوب قد أخذ اللون الذى أراده صاحبه. ويقف الوالد وأبناؤه والعمال مأخوذين أمام ما رأوا، وهنا يتركونه لحاله بعد أن تأكد لهم ما هو مائل إليه من سلوك الطرق الصوفية. لتبدأ شهرته من هذه الوقعة الصبَّاغ، وتنتقل هذه الوقعة من مكان لآخر ويذيع حديث الصباغ على أنه من الصالحين. .».

ويشب الصبَّاغ فى هذه البيئة المتميزة عمَّا حولها فى صعيد مصر، يُضاف إلى ذلك أنه ترقى فى أسرة على بسطة من الرزق، حتى إذا مر قطب الصعيد

عبد الرحيم القنائى بالمدينة كان الصبّاغ أول من رَحَّبَ به، وتحمس له، وأخذ عنه. ولعل القنائى قد أدرك فيه هذا الولع بالمعرفة، والحب للطريق الصوفى الذى ألهمه الله إياه، فقرَّبَهُ إليه، وأفاض عليه من عمله وفتوحاته حتى نضج فيما بدأ وأحب، إلى درجة أن أستاذه القنائى قال عنه ذات يوم: «لقد دخل أبو الحسن الصباغ من باب ما دخلنا»، قاصداً أنه اتبع الطريق الصحيح للصوفية.

ولعل عبد الرحيم القنائى كان ينزله منزله خاصة بين تلاميذه وأتباعة، وإلا فما معنى أن يقول عنه: «لو لم يكن من أصحابى إلا الشيخ أبو الحسن الصباغ لكفَى من سائر الأمم. ولئن يهدى الله بك رجلاً واحداً خَيْرٌ لك من حُمُر النعم». ومعنى هذه العبارة التى سجلها الأُدْفوى فى كتابه «الطالع السعيد»: أنه لو اقتصر كل أصحابه وتلاميذه ومريديه على الصباغ وحده لكان ذلك يكفيه، فهو كرجل واحد أعز من كل النفائس الممكنة» وهذا تقدير من شيخه ليس بعده تقدير.

وطبيعى أن يكون لهذا التقدير من القنائى صداه عند الصباغ، فنراه ـ كما يسجل المؤرخون ـ يهجر رباطه. بمدينة «قوص» ليقيم فى رباط أستاذه القنائى بمدينة «قنا» بعد وفاته. ويبقى فيه بقية حياته مضطلعاً بنشر تعاليم الصوفية فى صعيد مصر، فيلتف حوله الناس، يأخذون على يديه المعارف، ويغترفون من فيض علمه، وانتقلت إليه رئاسة تربية المريدين بعد القنائى، فكان فى ذلك خيرَ خَلَف لأعظم سَلَف.

وكان فى تربيته وتعليمه لتلاميذه ومريديه مثلاً طيباً للغيرة على الدين، ورَفْض البدع والأباطيل، ولعل التاريخ يذكر له أنه قد حارب الشيعة الذين يتغلغلون فى مختلف مدن صعيد مصر فراراً من اضطهاد الأيوبيين، وحارب فى عنف معتقداتهم الباطنية، وكان له دور فعال فى إخماد نار الفتنة التى اشتد أوارها بين المسلمين والنصارى فى إقليم قوص، إلى جانب ذلك كله أنه كان داعياً للخير قيما علي الأخلاق، ناهياً عن الفحشاء والمنكر، وغير ذلك من الفضائل.

وهكذا وعاش حياة حافلة بالعلم والتصوف إلى أن مرض فى أخريات أيامه، فكان يعوده التلاميذ والمريدون والأصحاب المقربون فكانوا يلقونه على حالة من التصوف والرضا بقضاء الله، والتشّوق إلى ملاقاته عز وجل. حتى أن أحدهم

سمعه، كما يذكر الأدفوى فى كتابه «الطالع السعيد» يهمس وكأنه يحدث نفسه قائلا: «سألت ما الذى بى فقيل لى: ابتليناك بالفقر فلم تشكُ، وأَفَضْنا عليك النعم فلم تشغلك عَنَّا، وما بقى إلا مقام أهل الابتلاء لتكون حجة على أهل البلاء..». وكان هذا هو حاله حتى فاضت روحه. فى عام ٦١٢ هـ.

مات هذا الشيخ الطيب تاركاً مذهباً يقوم فى جانبه النظرى على الحب الإلهى ووحدة الوجود، وقد روى عنه من الأشعار فى الحب الإلهى:

بقائى فناء فى بقائى من الهوى ... فيا ويح قلبى فى فناء بقاؤه
وجودى فناء فى فناء فإننى ... مع الأنس يأتينى هنيئاً بلاؤه
فيا مَنْ دعا المحبوب سراً بسره ... أتاك المنى يوماً أتاك فناؤه

ومما روى عنه أشعار فى وحدة الوجود حيث يقول:

تَسَرْمَدَ وقتى فيكَ فهو مُسَرْمَدٌ ... وأَفْنَيْتَنِي عَنِّى فَعُدْتُ مُجَرَّدَا
وكُلِّى بِكُلِّ وَصْلٌ محققٌ ... حقائقُ حَقّ فى دَوَامٍ تخلَّدَا
تَفَرَّدَ أَمْرِى فانْفَرَدْت بِغُرْبَتِى ... فصرتُ غريباً فى البريَّةِ أوْحَدَا

وكما يذكر الدكتور عبد المنعم الحفنى فى موسوعته الصوفية أن هذا الشيخ لم يجد اضطهاداً له بسبب مذهبه فى وحدة الوجود كالذى تعرض له من قبل الشيخ ابن عربى، لأنه كان بالصعيد، فلم يدر به أحد، وطريقته عن التصوف يقول فيها ليس لأحد عَلَّى فى هذا الطريق منّة إلا الله ورسوله.. وفى تعليمه للمريد يقول: لن يصفو قلبك إلا بتصحيح النية من الله عز وجل، ولن يصفو بذلك إلا بخدمة الأولياء، ولن تكون لك حالة شريفة، إلا بملازمة الموافقة، ومعانقة الأدب، وأداء الفرائض وصحبة الصالحين، وخدمة الصادقين. والذاكر لله تعالى لايقوم له فى ذكره عوض، والعارف من توافقه معرفته فى الأوامر ولا تخالفه فى شئ من أحواله، والسنة التى لم يتنازع فيها أحد من أهل العلم هى الزهد فى الدنيا، وسخاوة النفس، ونصيحة الخلق ومن علامة محبة الله للعبد محبة العبد إياه. وعلامة محبة العبد لله أن لا يُؤْثِرَ عليه شيئاً سواه، ومن علامة عدم الإيثار على الله النظر إلى الدنيا بعين الاحتقار، وإلى الأكوان ببصر الاعتبار، والسعيد من أعطاه الله قلباً وفكراً وبصراً معبراً، وأذناً تسمع من الله، ونفساً تنشط فى خدمة الله...».

* * *